موقف كلٍّ من قريش ممثَّلةً بأبي سفيان بن حرب, وقبائل كندة ممثلة بالأشعث بن قيس الكندي من الدولة العربية الأولى التي أسَّسها الرسول العربي الكريم

د. يوسف حمزة زردة*

ملخّصُ البحث:

لقد رأت الدول المجاورة للجزيرة العربية, كدولتي فارس والروم, في نظام حكم القبيلة ذاتَها بذاتِها ثُغرةً, أو نقطةَ ضعفٍ مكّنتهما من تأليب هذه من القبائل العربية على تلك, وضرب هذه منها بغيرها, فأراد الرسول الكريمُ ـ غِبَّ مَبْعَثِهِ ـ تأسيسَ دولةٍ تجتمعُ فيها قبائلُ العرب على كلمة واحدة, لا يجدُ فيها الأعاجمُ ما يمكن أن ينفذوا من خلاله إلى ضرب القبائل العربية بعضها ببعض.

وإذا كان طبيعياً أن يكون " الإسلامُ " شعارَ هذه الدولة أو عنوانَها بوصفه عنواناً للدين الجديد الذي جاء به الرسول الكريم, فقد كان طبيعيّاً أيضاً ألّا يكونَ موقفُ القبائل العربية من هذه الدولة المُزْمَعِ إنشاؤها واحداً؛ لأنَّ مصالح هذه القبائل ليست واحدة, بل مختلفة, وربما متضاربة في كثير من الأحيان, فأيَّدتْ هذه من القبائل قيامَ هذه الدولة, وسعت إلى توطيد أركانها بالقدر الذي استطاعته, وسَعَتْ ـ في مقابل ذلك ـ تلك من القبائل إلى إضعافها والحيلولة دونَ امتلاكها أسبابَ القوةِ؛ فقريشُ التي حاولت جاهدةً منعَ قيام دولة الإسلام؛ لِمَا رأته فيها من تهديد لمصالح كبرائها, صارت ـ بعد قيامها ـ من أكثر القبائل حرصاً على بقائها, ومَدِّها بأسباب القوّة, لأنّ مقاليدَ أمور هذه الدولة صارت بأيدي أبنائها, أمّا غيرُ قريش ـ كقبائل كِندَة مثلاً ـ فقد امتنعت عن تأييد قيام هذه الدولة, ما استطاعت إلى الامتناع سبيلاً, ولمّا أُسْقطَ في يدها, ولم تجد بُدّاً من قبولها بأن تكون واحدةً من لَبِنات هذه الدولة التي واجهتها بشعار" أسلموا تسلموا " تَجَرَّعَتْ مُكْرَهَةً كأس السُّمِّ, فدخلت فيما دخل فيه الناسُ, وانتظرت ـ على أحرَّ من الجمر ـ الفرصةَ المناسبة للخروج مما دخلت فيه على كُرْهٍ منها, بغيةَ استرجاع قرارها, وجعلِهِ حيثُ كانَ ـ قبلَ إسلامها ـ بيد أبنائها, والتَّخلّصِ من الإحساس بالتبعيّة لقريش وحلفائها الذين جمعتهم معها المصالح, فقاسموا الناسَ أموالهم بغير وجه حق, ونصّبوا من أنفسهم أسياداً عليهم, ووُلاةَ أمرٍ.

كلمات مفتاحيّة: قريش, قبائل كندة, أبو سفيانَ بنُ حَرْب, الأشْعَث بن قيس الكندي.

*أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة تشرين.

The position of both: Quresh, represented by Abu Sufian bin Harb, and Kandah tribes, represented by Al-Ashraf bin Qais Al-Kindi, from the first Arab State founded by the Holy Arab Prophet

*Dr. Youssef Zarda

Search summary:

The countries neighbouring the Arab Island, such as Persia and Rome, regarded the tribe's self-government as a gap or a weakness that enabled both of them to pit these Arab tribes against each other. Therefore, the Apostle wanted to set up a state where Arab tribes would agree so that no foreigners could separate them.
If "Islam" was naturally the symbol or title of this State, given that it was the title of the new religion proclaimed by the Holy Prophet, it was also natural that the attitudes of Arab tribes to this planned State would be different. This is so because the interests of these tribes were not the same, and perhaps often conflicting. Thus, some of these tribes supported the establishment of this State and attempted to strengthen its pillars as much as they could. Other tribes, on the other hand, tried to weaken it and prevent it from possessing sources of strength. Quraish, which tried so hard to prevent the establishment of the State of Islam because it saw it as a threat to the interests of its elders, later, after the establishment of the state of Islam, became one of the most supportive tribes to its survival because this State was ruled by its own people. Non-Qurish, for example Kinda tribe, refrained from supporting the establishment of this State. When it failed to do so, it could no longer refrain. On the contrary, it had to become one of the building blocks of this State that it was faced by the slogan: "Surrender and be safe". Kinda accepted the reality, and became part of it. But it waited impatiently for the right opportunity to get out of what it got into by force in order to retrieve her own decision and put it back in the hands of its own members, as it was before its surrender to Islam. It also wanted to get rid of the sense of subordination to Quraish and its allies that interests have gathered it with them and who were unfair in the way they split the resources and set themselves as masters of others.

Keywords: Quresh, Kindah Tribes, Abu Svianh Benharb, Al-Ashath Ben Qais Al-Kandi.

* Assistant Professor in the Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University.

هدف البحث:

لقد وهِمَ الكثيرون ـ وقد كنتُ قبلَ إعدادي هذا البحثَ واحداً منهم ـ فلم يميزوا بين" الإسلام" الذي دعا الرسول الكريمُ الناسَ إلى الدخول فيه بوصفه دولة ونظام حكمٍ من جهة, والدين الإسلامي بوصفه عقيدةً؛ فعَدُّوا كلِّ مَنْ امتنع عن دفع الزكاة مرتدّاً عن الدين الإسلامي, وكذلك فعلوا بالنسبة إلى مَنْ أرادَ التَّخلصَ من الإحساس بالتبعية لقريش ومَنْ جمعتهم معها المصالح, فعدُّوهم مرتدين عن الدين الإسلامي أيضاً, فحاولنا في هذا البحث أن نزيلَ لَبْساً متجذِّراً في أذهان الكثيرين تجلّى في خلطهم بين الإسلامِ بوصفه دولةً ونظامَ حكم, يستأثرُ أصحابُ الأمر والنفوذ فيه بالمكاسب التي تدرُّها عليهم مواردُ الدولة, وبين الدين الإسلامي بوصفه عقيدةً لها أركانُها ومقوّماتُها العقديّةُ, فتتبَّعنا من الشواهد والأدلَّة القرآنية وغيرها ما يدلُّ على أنَّ الإسلامَ الذي دعا الرسولُ الكريمُ الناسَ إلى الدخول فيه إنما هو الإسلامُ الذي يؤدي إلى إقامة الدولة,لا إلى إقامة الدين؛ وذلك لأنَّ الدولة الإسلامية لا تقوم إلا بالإسلام, أمّا الدين الإسلامي فقوامُه الإيمان بالإسلام, لا الإسلام وحدَهُ, ثمَّ سلَّطنا الضوءَ على إسلام أبي سفيان الذي كان إسلامُهُ ـ كما سيبينُ لنا ـ إسلامَ أُمّةٍ بأسْرها, أكثرَ منه إسلامَ فرد بذاته, وأشرنا إلى خلوِّ أدبيات الردة, ممّا يدل على رغبة المرتدين بالعودة إلى عقائد الجاهلية, وخلوّها أيضاً من القَدْح في أيٍّ من أركان الدين, الأمر الذي دلّنا على أنَّ الردة عن الإسلام لم تكن رِدّةً عن الدين الإسلامي, بل كانت حالةَ تمرُّدٍ على سلطة الدولة الإسلامية, بل الدولة القرشيّة, التي أثرى أصحابُ الأمر والنفوذ فيها على حساب المحكومين من أبناء القبائل العربية الأخرى, الذين أحسُّوا بالتبعية لقريش, فحاول أبناءُ هذه القبائل ـ لمّا سنحت لهم الفرصةُ ـ إسقاطَ هذه الدولة, والاحتفاظَ بأموالهم لأنفسهم, وجعلَ قرارهم بأيدهم, لا بيد أحدٍ آخرَ سواهم, كائناً مَنْ كان هذا الآخر, وبغضّ النّظر عن أثر ذلك في العقيدة أو الدين.

مقدَّمة البحث:

ثمّة خلطٌ في أذهان الكثيرين بين مفهومي: الإسلام, والدين الإسلامي, أو العقيدة الإسلامية, ومن بين ما تجلّى فيه هذا الخلطُ اعتبارُ الرِّدَّةِ عن الإسلام رِدَّةً عن الدين الإسلامي, أو عودةً إلى الكفر بعد الإيمان, والحقيقةُ أنّا لم نرَ في أدبيات الرِّدَّةِ ـ كما سيبينُ لنا ـ أو وقائعها, أو ممارسات المُرتدِّين أنفسِهم, حتى المتنبّئينَ منهم, ما يشير إلى شيءٍ من ذلك على الإطلاق؛ فليس ثمَّةَ مَنْ المرتدين مَنْ قدحَ في الرسول الكريم, أو القرآن, كما ليس ثمَّةَ من المرتدين مَنْ نادى بوجوب إعادة الأصنام إلى حيث كانت أيام الجاهلية, أو عبَّر عن رغبته في ذلك. وحسبُنا ذلك دافعاً إلى محاولة معرفة ما ارتدَّ عنه المرتدون على وجه الدّقة, ولاسيما مَنْ أسلم من هؤلاء المرتدين, وهو في مواجهة شعار " أسْلِمُوا تسْلَمُوا ".

وبعد أن أثبتنا من أدبيات الرِّدَّة, ووقائعها ما يدلُّ على أنَّ المرتدين لم يرتدّوا عن دينٍ صاروا إليه بإسلامهم, إلى دينٍ كانوا عليه في جاهليَّتهم, حاولنا تلمُّسَ البواعث التي دفعتهم إلى الرِّدَّة, فلم تتعدَّ تلك البواعثُ, أو تجاوزْ ـ كما ظهر لنا ـ حدودَ باعثين رئيسين: أوّلُهما الباعثُ الاقتصاديُّ أو الماليُّ, وثانيهُما باعثُ العصبيّة القبليّة, فعُنِينا لذلك في هذا البحث بتتبع ما يدلُّ القارىءَ على أنَّ الرِّدَّة إنّما هي حالةُ عصيانٍ, أو تمرُّدٍ على سلطة الدولة القُرَشيّة التي قاسَمَتْ مَنْ دخلوا في الإسلام أموالَهم, وجعلتْهم أتباعاً لقريش بعد أن كانوا أسيادَ أنفسهم, فحاولوا بردَّتهم الاحتفاظَ بأموالهم لأنفسهم, وجعلَ قرارهم بأيديهم, لا بأيدي أحدٍ آخرَ سواهم, كائناً مَنْ كان هذا الآخرُ, وبغضِّ النَّظر عن أثر ذلك في الدين أو العقيدة.

منهج البحث:

بدأنا البحث بالحديث عن الفَرْق بين الإسلام بوصفه دولةً, ونظامَ حكمٍ, والدينِ الإسلامي بوصفه عقيدةً لها مقوّماتُها وأركانُها, فخَلَصْنا إلى أنَّ الرِّدَّةَ ـ بالاستناد إلى أدبياتها الشعريّة منها والنثرية, وبالاستناد إلى وقائعها أيضاً ـ إنما كانت رِدَّةً عن الإسلام بوصفه دولةً, ونظامَ حكمٍ, ولم تكن رِدَّةً عنه بوصفه ديناً أو عقيدةً, وبعد ذلك تحدَّثنا عن دخول قريش في الإسلام, بوصفها أولى القبائل العربية التي أسلمتْ لتسلمَ, عندما رأت نفسَها وجهاً لوجه أمام شعار " أسلموا تسلموا" تأسّياً منها بزعيمها أبي سفيان, الذي ربما كان أوّلَ قُرَشِيٍّ أسلم وهو في مواجهة هذا الشعار, ثمَّ انتقلنا من الحديث عن إسلام أبي سفيان وقريش, إلى الحديث عن دخول بعض القبائل اليمنية(قبائل كندة) التي أسلمت لتسلمَ أيضاً, كما هو الحال بالنسبة إلى قريش, ثمّ حاولنا معرفة ما دفع قريشاً, بعد أن أسلمت على قاعدة "أسلموا تسلموا", إلى بقائها على الإسلام بإصرار وعنادٍ, وما دفع قبائلَ اليمن, ولاسيما قبائل كندةَ بعد إسلامها على القاعدة نفسها, إلى الرِّدَّة عن الإسلام, بثبات وعنادٍ أيضاً, وبعد ذلك حاولنا استنطاقَ ما صدرَ عن الطرفين من أدبيات شعرية ونثرية, وسواها من ممارسات كفيلةٍ بالدلالة على البواعث الاقتصادية والقَبَليّة التي كانت وراء رِدَّة مَنْ ارتدَّ عن الإسلام من مسلمي"أسلموا تسلموا, ومثلِها من البواعث التي كانت وراء ثبات مَنْ بقيَ منهم على إسلامه, ممثَّلين في بحثنا بقريش التي مثَّلت مَنْ ثبتَ على إسلامه منهم, وقبائل كِندةَ, التي مثَّلت مَنْ ارتدَّ منهم عن إسلامه.

الإسلامُ على قاعدة "أسلموا تسلموا" هو عِمادُ قيام الدولة,لا عِمادَ قيام الدين:

نعني بمسلمي "أسلموا تسلموا" أولئك الذين أعلنوا إسلامهم وهم في مواجهة جيش خاطبهم ـ بعدما قويت شوكتُه ـ بقوله لهم:" أسلموا تسلموا". فأسلموا؛ أي دخلوا في الإسلام. وبالاستناد إلى ذلك فقد كان طبيعيّاً ألّا يكونَ إسلامُ هؤلاء, على هذا النحو آيةً كافيةً للدلالة على إيمانهم بالدين الإسلامي, أو اعتقادهم العقيدةَ الإسلاميّةَ؛ وقد أشار القرآن الكريم نفسُهُ إلى ذلك إشارةً واضحةً, لا لَبْسَ فيها, فقال تعالى:

﴿ قَالَتِ ٱلأَعرَابُ آمَنَّا قُل لَّم تُؤمِنُواْ, وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسلَمنَا, وَلَمَّا يَدخُلِ ٱلإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم[1] ﴾ فالإسلام ـ بالاستناد إلى منطوق الآية الكريمة ـ شيءٌ, والإيمان به شيءٌ آخرُ سواه. الأمرُ الذي يعني أنَّ الرسول الكريمَ قد دعا الناسَ إلى الإسلام, وقبِلَهُ منهم, سواءٌ كان هذا الإسلام مشفوعاً بإيمانهم به, أو غيرَ مشفوع, بدليل قوله تعالى لهم: إنكم لم تؤمنوا بالإسلام, ولكنكم أسلمتم, والدلائلُ على قبول الرسول الكريم من الناس الإسلامَ غيرَ المشفوع بالإيمان أكثرُ من أن تُحْصَى, وحسْبُنا منها في هذا المقام قبولُ الرسول الكريم إسلامَ جُويرةَ بنتِ أبي جهل التي قالت للرسول يومَ فتحِ مكَّةَ: إنَّنا سَنسْلِمُ وسنصلّي, ولكنّا نكرهُكَ؛ لأننا لن نحبَّ مَنْ قتل الأحبَّة[2]؟ وقبولُه, بل سرورُه بإسلام أبي سفيان الذي قال للرسول الكريم صراحةً لحظةَ دخوله في الإسلام: إنّي على شكٍّ في نُبُوَّتك[3], فلم يَفُتَّ ذلك في عَضُد الرسول الكريم, ولم يُوهِنْ عزمَه على انتزاع إقرار قريش بالإسلام, مستعيناً على ذلك بأبي سفيان نفسِه, بوصفه زعيمَ قريش, وأحدَ أبرز ساداتها, الأمرُ الذي سيدلّنا بوضوح على أنَّ الرسول الكريمَ إنما كان يريد من إسلام الناس القبضَ على البذرة التي نَمَتْ على يديه, فأنتجت الدولةَ الإسلاميةَ التي سيسعى إلى إبقائها بعضُ مَنْ أسلموا على قاعدة "أسلموا تسلموا", كقريش ومَنْ جمعتهم معها المصالحُ كالأنصار, ويسعى ـ في مقابل ذلك ـ بعضُهم الآخرُ إلى إسقاطها بغضِّ النَّظر عن العلاقة بين هذه الدولة من جهة, والدين, أو العقيدة الإسلامية من جهة أخرى.

قريش تُسْلمُ على قاعدة "أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا"[4]:

لقد كانت قريش أولى القبائل العربية التي خوطبت بشعار "أسلموا تسلموا", فقد ضَيّقتْ ـ كما هو معلوم ـ على الرسول الكريم في مكَّةَ إلى درجة اضّطرته, ومَنْ معه ممّن آمنوا بنبوّته, إلى مغادرة مكَّةَ التي لم تغادرْه يوماً, فبقيَ فؤادُهُ متعلّقاً بها, وبقيتْ هي ـ بزعامة أبي سفيان بن حرب ـ متأبيةً عليه مستعصيةً, لا ترِقُّ له, ولا تلينُ؛ فقريشٌ استمرت في عنادها لم تخضع للرسول, أو تسمح له بدخولها, وهو ما فتىءَ ـ ومن ورائه الأنصار والمهاجرون الأوَّلون ـ مُذْ خرج منها ساعياً إلى دخولها عبثاً ودونما جدوى, فظلَّتِ الحروب سِجالاً بين الطرفين سبعَ سنوات عِجافاً, انتهت بقول أبي سفيان, بعد تردُّدٍ:" أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله" معلناً بذلك إسلامَه, الذي أعقبه, بعودته إلى مكّةَ, وتوعُّدِه قريشاً بالويل والثبور ما لم ترضخ للرسول, وتفتح له صاغرةً أبوابَها, وهذا ما حصل بالفعل في السنة الثامنة للهجرة .

صحيحٌ أنَّ الجيش الذي توجّه به الرسول الكريم إلى مكَّةَ لم يرفعْ رايةً كُتِبَ عليها "أسلموا تسلموا", كما أنَّه لم يُرسلْ إلى أهل مكّة كتاباً يخيّرُهم فيه بين إسلامهم وسلامتهم, على غرار ما سيفعله مع القبائل

[1] ـ الحجرات: 114.

[2] ـ وقد قال للرسول الكريم مثلَ الذي قالته جويرةُ, في المناسبة ذاتها كلٌّ من خالد بن أَسَد, والحارثِ بن هشام. انظرالكامل في التاريخ لابن الأثير: 2/ 126.

[3] ـ تاريخ الطبري: 3/ 54.

[4] ـ انظر وقائع إسلام قريش في تاريخ الطبري: 3/ 42 – 62.

الأخرى التي ستُعلن إسلامَها عقبَ إسلام قريش, ولكنَّ الصحيحَ أيضاً أنَّ قريشاً لم تُسلِمْ إلا عندما أرسل إليها الرسولُ(ص) رسولاً يبلِّغُها رسالةً لم يقلْها بلسانه, تحمل معنى" أسلموا تسلموا" على نحوٍ صريحٍ وواضحٍ لا لَبْسَ فيه. وقد شاءت الأقدارُ أن يكون حاملَ هذه الرسالة إلى قريش, أبو سفيان بن حرب, الذي بقيَ - حتى اللحظة التي أسلمَ فيها - ألدَّ أعداء الرسول, وأعتى خصومه القرشيين على الإطلاق.

وفي وقائع أو مجريات ذلك - كما أفادت المصادر التاريخيّة التي عُنِيَتْ بتتبع وقائع انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية - أنَّ الرسول(ص) عزمَ على دخول مكَّةَ حرباً, بعدما يئسَ من إمكانية دخولها سِلْماً, فجهَّزَ لتلك الغاية جيشاً[1] وخرج به من المدينة, من غير أن يعلنَ عن الوجهة التي يريدها, كما هي عادتُه في غزواته الأخرى, كيلا يصلَ الخبرُ قريشاً فتستعدَّ لمواجهته وصدِّه عن مراده, فبلغَ قريشاً خبرُ خروجه من المدينة إرادةَ الغزوِ, ونزوله "مرَّ الظّهران[2]", فأرسلتْ أبا سفيان برفقة بُديل بن ورقاء, وحكيم بن حزام, عيناً لها ترصدُ أخبارَ هذا الجيش, وتحاول معرفة وِجهته, وكان عمُّ الرسول الكريم, أبو الفضل العباسُ بنُ عبدِ المُطَّلب قد خشيَ على قريشٍ الهلاكَ إنْ بَغَتَها الرسولُ بجيشه, فخرج من مكّةَ لمّا بلغه خبرُ خروج الرسول ونزوله "مَرَّ الظَّهران", وجاءه بالسُّقيا, فاطَّلع على ما نوى عليه الرسولُ الكريم, وأرادَ تجنيبَ الفريقين الحربَ المُهلكةَ, فركب بغلةَ الرسول الكريم, وهبط الوادي لعلّه يصادف مَنْ يبعثُ به إلى قريش يُبَلِّغُها خبرَ قدوم الرسول إليها, وعزمِه على دخول مكَّةَ بالقوة, علَّها تفعلُ ما عساهُ أن يجنّبَها الهلاكَ المُحَتَّمَ, فانتهى إلى سمعه - وهو بين أشجار الأراك - صوتُ أبي سفيان, فناداه باسمه, فأجابه أبو سفيان وعرفه من صوته أيضاً: ما وراءَك يا أبا الفضل, فقال: ورائي "محمّدٌ" جاءكم بجيشٍ لا طاقةَ لكم بمواجهته, فقال له أبو سفيان: فما العملُ إذن؟ فأجابه: لا أرى إلا أن تمتطي ظهرَ هذه البغلة ورائي, فأَذهبُ بك إلى الرسول أستأمِنُه لك, فوافقه أبو سفيان الرأيَ, فاصطحبه معه إلى الرسول(ص), الذي أمَّنه, وسأله: أَمَا آنَ لك أن تعلمَ أن لا إله إلا الله؟ فأجابه أبو سفيان, بلى, واللهِ لو كان مع الله غيرُهُ, لأغنى عنّي شيئاً, فأردف الرسول قائلاً: ويحك يا أبا سفيان, أما آن لك أن تعلمَ أنّي رسولُ الله؟ فتبسَّمَ أبو سفيان, وقال: أمّا هذه ففي نفسي منها شيءٌ[3], فغضبَ العباسُ لقوله هذا, وقال له: تَشَهَّدْ شهادة الحَقِّ, قبلَ أن تُضْرَبَ - واللهِ - عُنُقُكَ, فقال أبو سفيان صاغراً: أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله.

بعد أن نطقَ أبو سفيان بشهادةِ الحقِّ بحسب تعبير العباس, رأى الرسولُ الكريمُ فيه - وقد أسلمَ لتَوِّه - خيرَ مَنْ يحملُ رسالتَه إلى قريش, لِما له فيها من مكانةٍ رفيعةٍ, وأثرٍ كبير, فقال للعباس: اذهبْ به,

[1] - قوام هذا الجيش عشرة آلاف, جلُّهم من المهاجرين والأنصار. انظر ما لكلِّ قبيلة من هذا العدد في الكامل في التاريخ لابن الأثير: 2/ 119.

[2] - وادٍ يفصل بين المدينة ومكّة. معجم البلدان لياقوت الحموي:2/ 146.

[3] - إنَّ إقرار أبي سفيان بإيمانه بأن لا إله إلا الله دليلٌ على أنَّ ما يفصل الجاهليّ الوثنيَّ عن الإسلام هو شهادة أنَّ محمداً رسول الله فقط, وليس شهادة" لا إله إلا الله.

واحبِسْهُ عند مضيق الوادي, لتمُرَّ أمامَ ناظريه كتائبُ الله, فأخذهُ العباسُ إلى حيث أمرَهُ الرسولُ, وجعلتْ كتائبُ الجيش الذي أعدَّه الرسول الكريم تمرُّ من أمامه الواحدةَ تلوَ الأخرى, فلم يعبأْ أبو سفيان بأيٍّ منها, حتى إذا مرَّ رسولُ الله بالكتيبة الخضراء, كتيبتِهِ من المهاجرين والأنصار, في الحَديدِ, لا يُرى منهم إلا الحَدَقُ[1], قال أبو سفيان للعباس: مَنْ هؤلاء يا أبا الفضل؟ فأجابه: هذا رسولُ الله في المهاجرين والأنصار, فقال أبو سفيان له: لقد أصبح مُلْكُ ابنِ أخيكَ عظيماً, فقال له العباسُ: مَهْ, فَضَّ اللهُ فاكَ يا رجل, إنه ليس مُلْكاً, إنها النّبُوَّةُ يا أبا سفيان, فهزَّ أبو سفيان برأسه, وقال: نعم, إنها النّبوّةُ إذن.

بعد إقرار أبي سفيان ـ على طريقته التي لا تُخْفي هُزْءَهُ بالنُّبُوَّة المحمولة على حدِّ السيوف, وسُخْطَهُ على ما آلتْ إليه الأمور ـ بأنّ ما رآه آيةٌ من آيات النُّبوَّة, قال له العباس: اذهبِ الآنَ إلى قومكَ, وحذِّرْهمْ إنْ هم أرادوا صدَّ الرسول عن مُراده, فعاد أبو سفيان إلى مكّةَ بصحبة رفيقيه, بُديل, وحكيم, فلمّا وصلها نادى في المسجد بأعلى صوته: يا أهلَ مكَّة, هذا "محمَّدٌ" قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به, فقالوا له: وما العملُ؟ فقال: مَنْ دَخَلَ دَاري فَهُوَ آمِنٌ, وَمَنْ دَخَلَ دَارَ حَكِيمٍ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عليه بَابَهُ وَكَفَّ يَدَهُ فَهُوَ آمِنٌ, فأذعنت لقوله قريش, وأمْكَنَتِ الرسولَ من دخول مكَّة, فدخلها وقضى نُسُكه في الكعبة, ثمّ جلس عَلَى الصَّفَا, وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ تَحْتَه أَسْفَلَ مِنْ مَجْلِسِهِ يَأْخُذُ عَلَى النَّاسِ البيعة, فَبَايَعَه الرجال عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ على قدر الاستطاعة[2], حتى إذا فرغ من مبايعة الرجال, دعا النساء إليه ليبايِعْنَه, فجاءته نساءٌ من قريش[3], تتقدَّمهنَّ هندُ بنتُ عتبةَ زوجةُ أبي سفيان, فبايَعَهُنَّ على ألّا يُشركن بالله, وألّا يسرقن, وألّا يزنين,, وألّا يقتلن أبناءهنَّ, وألّا يأتينَ ببهتان, وألّا يعصينه بمعروف[4]. وهكذا تكون قريش قد أسلمتْ برجالها ونسائها؛ فرجالها أسلموا بإمامةِ أبي سفيان بن حرب, ألدِّ أعداء الرسول, وأعتى خصومه القرشيين على الإطلاق, ونساؤها كذلك أسلَمَتْ تؤمُّهُنَّ إلى الإسلام زوجةُ أبي سفيان, هندُ بنتُ عُتْبة, آكلةُ كَبِدِ حمزةَ عمِّ الرسول الكريم. وفي قَبولِ الرسول (ص) إسلامَ كلٍّ من أبي سفيان وزوجته, بل في سرورِهِ بإسلامهما لدليلٌ كافٍ على أنَّ ما يعني الرسولَ من إسلامهما هو الظَّفَرُ بما يمكّنُهُ من إقامة الدولة الإسلامية بالدرجة الأولى, تلك الدولة التي يعلم يقيناً أنها لن تقومَ ما لم تكن مُؤَيَّدةً من قريش, كيف لا وقريش إمامُ الناس[5], وصاحبةُ حِمى الكعبةِ الشريفة,

[1] ـ تاريخ الطبري: 3/ 54.
2ـ تاريخ الطبري» ٣/ 61 .

[3] ـ انظر أسماءهنَّ في الكامل لابن الأثير 2/ 125 - 126.
[4] ـ تاريخ الطبري: 62/3.
[5] ـ قال ابن الأثير: لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ مَكَّةَ ضَرَبَتْ إلَيْهِ وُفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَإنَّمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَنْتَظِرُ بِإسْلَامِهَا قُرَيْشًا؛ إذْ كَانُوا أَمَامَ النَّاسِ، وَأَهْلَ الْحَرَمِ، وَصَرِيحَ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ بْنِ إبْرَاهِيمَ...، فَلَمَّا فُتِحَتْ مَكَّةُ وَأَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ عَرَفَتِ الْعَرَبُ أَنَّهَا لَا طَاقَةَ لَهَا بِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ, وَلَا عَدَاوَتِهِ، فَدَخَلُوا فِي الدِّينِ أَفْوَاجًا. الكامل في التاريخ لابن الأثير:٢/ 152.

بيتِ إبراهيم العتيق, محجِّ العرب في الجاهلية, ومحجِّهم في الإسلام أيضاً؟! فلو كان ممكناً أن تقوم الدولة الإسلاميّة من دون قريش لَمَا انتظر الرسولُ الكريمُ إسلامَها, بأيّة طريقة كانت, سبعَ سنواتٍ عِجافاً.

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن إسلام القبائل الأخرى التي يعنينا ذكرها في هذا البحث, نرى أنه من المفيد لنا أن نشيرَ إلى أنَّ الرسول الكريم لم يشأْ أن يُكلِّفَ قريشاً بإسلامها من أمرها شَطَطاً, فقَبِلَ من رجالها مبايَعَتَهُ على ما هو من قبيل السَّهْل, والمُمكِن, وربما البسيطِ, وغيرِ المُكْلِفِ, فقَبِلَ منهم الطاعةَ بقدر ما يستطيعون, وقد بات هذا تحصيلَ حاصلِ إقرارِهم بأنَّه رسولُ اللهِ. أمّا نساءُ قريش فقد طالبهُنَّ بمبايَعَتهِ على آدابٍ عامَّة, وخصالٍ حميدةٍ لا يُماري فيها أحدٌ. وقد جاءت بنودُ بيعتهِنَّ في سياق حوارٍ طريفٍ, وربما وُدِّيٍّ, جرى بين الرسول الكريم, وهنْدٍ بنتِ عُتْبَةَ زوجةِ أبي سفيانَ, حوارٍ يرشَحُ بالحرارة والحبِّ الذي يُكِنُّهُ الرسولُ لقريش, كلِّ قريش, رجالاً ونساءً. وليس هذا بمُستَغربٍ على الإطلاق؛ فقريشٌ أهلُ الرسول أولاً, وأهلُه آخِراً. وإليكَ هذا الحوارَ بحرفيَّته كما أوردتْهُ بعضُ المصادر. قال الطبريُّ:" لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله (ص) مِنْ بَيْعَةِ الرِّجَالِ بَايَعَ النِّسَاءَ، فاجتمعتْ إِلَيْهِ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، فِيهِنَّ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، مُتَنَقِّبَةً مُتَنَكِّرَةً, لِحَدَثِهَا وَمَا كَانَ مِنْ صَنِيعِهَا بِحَمْزَةَ، فَلَمَّا دَنَوْنَ مِنْهُ لِيُبَايِعْنَهُ, قالَ رسولُ الله لهُنَّ: تُبَايِعْنَنِي عَلَى أَلا تُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا! فَقَالَتْ له هِنْدٌ: لمَ لمْ تأخذْ على رجالنا ما تأخذه علينا؟ وَسَنُؤْتِيكَهُ. قَالَ: وَلا تَسْرِقْنَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لأُصِيبُ مِنْ مَالِ أَبِي سُفْيَانَ الْهَنَةَ وَالْهَنَةَ, وَمَا أدري أكان ذلك حلالي أَمْ لا؟! فَقَالَ لها أَبُو سُفْيَانَ - وَكَانَ شَاهِدًا لِمَا تَقُولُ - أَمَّا مَا أَصَبْتِ فِيمَا مَضَى فَأَنْتِ مِنْهُ فِي حِلٍّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لها: وَإِنَّكِ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ! فَقَالَتْ: أَنَا هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، فَاعْفُ عَمَّا سَلَفَ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ. قَالَ: وَلا تَزْنِينَ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ! قَالَ: وَلا تَقْتُلْنَ أَوْلادَكُنَّ, فقَالَتْ: قَدْ رَبَّيْنَاهُمْ صِغَارًا، وَقَتَلْتَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ كِبَارًا، فَأَنْتَ وَهُمْ أَعْلَمُ! فَضَحِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ قَوْلِهَا حَتَّى اسْتَغْرَبَ. قَالَ: وَلا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ، قَالَتْ: وَاللَّهِ إِنَّ إِتْيَانَ الْبُهْتَانِ لَقَبِيحٌ، وَلَبَعْضُ التَّجَاوُزِ أَمْثَلُ, فقَالَ: وَلا تَعْصِينَنِي فِي مَعْرُوفٍ، قَالَتْ: مَا جَلَسْنَا هَذَا الْمَجْلِسَ وَنَحْنُ نُرِيدُ أَنْ نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص لِعُمَرَ: بَايِعْهُنَّ ، فَبَايَعَهُنَّ عمرُ[1]".

ربما كان واضحاً أنَّ الأجوبة التي أجابت بها هندٌ على ما سأله الرسول (ص) لا توحي بأنها جاءَتْهُ خائفةً, مُرتعدةَ الفرائصِ, واجفةً, بل لا توحي بأنها قلقةٌ أصلاً, وربما حَقَّ لنا أن نرى في أجوبتها ما يجعلنا نُحِسُّ بأنّها قد حاورتِ الرسولَ محاورةً حميميّةً, بل ربما حَقَّ لنا أن نرى فيها محاورةً نِدِّيَّةً؛ فلم تُجِبْهُ بكلمة "نَعَمْ" على أيٍّ من أسئلته, إنما أجابتْهُ بما يدلُّ على ثقتها بنفسها, واعتدادها بذاتها, ثقةً واعتداداً انتزعا من عمرَ بن الخطاب الضَّحِكَ, ومن زوجها أبي سفيان المُزاحَ بحضرة الرسول الكريم. فهندُ لم تقل للرسول: إنّا

[1] – انظر وقائع فتح مكَّة في تاريخ الطبري 3/ 51 – 62.. والكامل في التاريخ لابن الأثير: 2/ 115 – 125.

نبايعُك على ألا نشركَ بالله شيئاً, ولكنها أجابته بـ: لمَ لمْ تأخذْ على رجالنا ما تأخذُهُ علينا؟ وهي لم تُجِبِ الرسولَ عندما طالبهنَّ بعدم الإقدام على السرقة, بالموافقة البلهاء أو العمياء, إنما أجابته بكلامٍ فيه من الظُّرفِ ما لا يخطئهُ السَّمْعُ؛ قالت له: واللهِ, ما سرقتُ قطُّ, إلا إذا كان أخذي من مال زوجي, ما يمكن أن تَعُدَّه سرقة. وهي عندما تقول للرسول الكريم ذلك بحضور زوجها, يعني أنها تمازحُ الرسولَ أكثرَ مما تُجيبُه عما يسأل. ثمَّ إنّها عندما طالبهنَّ الرسولُ بعدم قتل أولادهنَّ, أجابته بما يدلُّ على أنها لا تجدُ ما يسوّغ للرسول سؤالَه هذا؛ فلم تقل له: سمعاً وطاعة, إنّا لن نقتلَ أولادنا, بل قالت له: إنا لم نقتلْ أولادَنا من قبلُ, بدليل أنكَ قاتلتَهم وقتلتَهم يومَ بدر, فلو كنّا نقتلهم ما لاقيتهم يومَ بدر, ولا في غيره من الأيام. ومما يدلّنا أيضاً على الحميميّة والوُدِّ الذي يُكِنُّه الرسول الكريمُ لقريش, طلبُهُ من نسائِها ألّا يعصِيْنَه في معروفٍ, فهو لم يطلب منهنَّ ألّا يعصينَه فحسْبُ, إنّما طلبَ منهُنَّ ألّا يعصِيْنَهُ في المعروف فقط. وجوابُ هذا مُتَّفقٌ عليه, وغيرُ مُختلَفٍ فيه, لأنه لا ينبغي أنْ يُعْصَى أحدٌ بمعروف, فكيف إذا كان المُطالِبُ بالمعروف هو الرسول نفسه؟.

وربما كان جديراً بنا هاهنا أن نثبت بعضَ أقوال مَنْ شاؤوا أن يشفَعُوا إسلامَهم بما يدلُّ دلالة صريحةً لا لَبْسَ فيها على أنَّ إسلامَهم إسلامُ إذعانٍ, لا إسلامُ إيمانٍ؛ قال ابنُ الأثير:"بعد أنْ أخذَ الرسولُ الكريمُ البيعةَ من رجال قريش ونسائها, وجاء وقتُ الظّهر أمر بِلَالًا أَنْ يُؤَذِّنَ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ, وَقُرَيْشٌ فَوْقَ الْجِبَالِ، مِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الْأَمَانَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ أَمِنَ، فَلَمَّا أَذَّنَ بلالُ وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالَتْ جُوَيْرَةُ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ: لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أَبِي حِينَ لَمْ يَشْهَدْ نَهِيقَ بِلَالٍ فَوْقَ الْكَعْبَةِ. وَقِيلَ: إِنَّهَا قَالَتْ: لَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَسَنُصَلِّي، وَلَكِنَّا لَا نُحِبُّ مَنْ قَتَلَ الْأَحِبَّةَ. وَقَالَ خَالِدُ بْنُ أَسَدٍ: لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أَبِي، فَلَمْ يَرَ هَذَا الْيَوْمَ. وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ: لَيْتَنِي مُتُّ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ[1]". فهؤلاء جميعاً قَبِلَ الرسولُ إسلامَهم, ولمْ يعبأْ بمجاهرتهم له بالكُره, وعدمَ الإيمان بنبوَّته؛ لأنَّ ما يعنيهِ منهم ومن غيرهم إنما هو الاستكانةُ لإرادته فقط، وإذعانُهم لها؛ ليفرغَ هو إلى توطيد أركان الدولة التي لا تحتاجُ إلّا إلى طاعة المحكومين برضىً منهم أو غير رضى. والذي لا نشكُّ فيه أنَّ الرسولَ الكريمَ كان قادراً على انتزاعِ إقرار هؤلاء بحُبّهم لهُ, واعتذارهم منه, كما انتزعَ إقرارَهم بالإسلام, ولكنَّه لم يشأْ أن يشجّعَ على النِّفاق؛ ففضّلَ اعترافَ بعضهم بكُرْهِهِ على إقرارهم نِفاقاً وكِذباً بمحبَّته.

وقبل أن نتحدّث عن مجريات أو وقائع إسلام قبائلِ كِندةَ, بوصفها الأنموذجَ الذي اخترناه مُمثِّلاً للساعينَ إلى إسقاط الدولة الإسلامية, والتَّحرر من قبضتها, نَوَدُّ الإشارةَ إلى أنَّ الرسول الكريم, قد غادر مكَّة من غير أنْ يجعلَ عليها أميراً, ومن غير أن يُكَلِّفَ أحداً بجمع الصدقات من أهلها, علماً بأنه سيفعل ذلك

[1] ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير: 2/ 126.

مع غيرها من القبائل الأخرى من دون استثناء؛ لأنه ـ بحسب اعتقادنا ـ لم يُرِدْ أنْ يُوغِرَ صدرَ أحدٍ من القرشيين عليه, وهو الذي انتظر إسلامَهم على أحرَّ من الجمر سبعَ سنواتٍ عِجافاً, كما ذكرنا من قبلُ.

وعلى أيَّة حال فقد أقام الرسول(ص) في مكّة بعد أخذ البيعة من رجالها ونسائها خمسةَ عشرَ يوماً, غادر بعدها إلى المدينة, فبدأت وفودُ القبائل العربية تتقاطر إليها لتعلنَ إسلامَ القبائل التي تُمثِّلها[1]؛ فقدم على الرسول الكريم في السنتين: التاسعة والعاشرة للهجرة بعد وصوله المدينةَ وفدُ بَلِيٍّ, ووفدُ الدّاريينَ من لخم, ووَفْدٌ من بَنِي تَمِيمٍ ضمَّ معظم أشرافهم, ووفدُ بني سَعْد, ووفْدُ زُبَيْدٍ, ووفد عبد القيس, وقدم وفدُ بني حنيفةَ ومعهم مسيلمةُ بن حبيب، ووفد مُحارب, ووفد الرَّهَّاويين, ووفد العاقب والسِّيّد من نجران، ووفد بني عبس, ووفد صَدَف، ووفد خولانَ, ووفد الأزْد, على رأسهم صُرَدُ بْن عبد الله الأزديُّ فِي بضعةَ عشرَ رجلاً, فَأَمَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُجَاهِدَ بِهم مَنْ لم يُسْلِمْ بعدُ مِنْ قَبَائِلِ الْيَمَنِ, فخرج صُرَدُ قاصداً جُرَشَ, فلاذت بعضُ قبائل اليمن لمّا سمعت بقدومه إليها, بالمدينة وتحصَّنوا فيها, فحاصرهم المسلمون فيها قرابةَ شهر, ولمّا يئسوا من دخولها عاد صُرَدُ أدراجَه, فظنَّ اليمنيون المتحصِّنون فيها, أنه قد انهزم, فخرجوا يطلبونه, فعطف عليهم, وقتل منهم الكثير, فما كان من أهل جُرَش إلّا أن أرسلوا وفداً إلى الرسول يبلّغه إسلامهم[2], وَقَدِمَ في السنة العاشرة للهجرة وَفْدُ كِنْدَةَ، على رَأْسهم الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ الْكِنْدِيُّ الذي سيُسلمُ على طريقة أبي سفيان؛ أي على قاعدة "أسلم تسلمْ" نفسها, ولكنه سيرتدّ, وسيُصِرُّ على رِدَّته حتى تعيدَهُ إلى الإسلام سيوفُ جنودِ أبي سفيان الذي أسلم ـ كما علمنا ـ على قاعدة " أسلم تسلمْ". ولَعَمْرِي تلك هي المفارقةُ التي لا شيءَ يفسُّرها أكثرَ من معرفة ما سعى إلى تحقيقه كلٌّ من الأشعثِ بردَّته عن الإسلام, وأبي سفيان بثباته على الإسلام, بعد أن أسلم كلٌّ منهما على قاعدة "أَسْلِمُوا تسْلمُوا" ذاتِها.

وبما أننا قد اتخذنا من رِدَّة الأشعثِ بنِ قيسٍ الكِنْدِيّ, مثالاً نتتبّع في ضوئه بواعثَ رِدَّة بعض القبائل اليمنيّة عن الإسلام, ربما كان لزاماً علينا أن نلقي ضوءاً على مجريات أو وقائع إسلام بعض هذه القبائل اليمنية, ولاسيما قبائل كندةَ التي ينتمي إليها الأشعثُ الكِنْديُّ الذي ختمَ رِدَّته عن الإسلام بزفافه على أمِّ فَرْوَةَ, أختِ الخليفة أبي بكر الصِّديق, ليكونَ زِفافُه عليها آيةً بالغةَ الدلالة على أنَّ ردَّته لم تكن أكثر من حالة تمرّدٍ على سلطة الدولة ممثَّلةً بأبي بكر حاكمِ هذه الدولة, الذي يمثِّله زيادُ بنُ لبيدٍ عاملُهُ, وعاملُ الرسول من قبلِه, على صدقات قبائل كندة التي ينتمي إليها الأشعثُ بنُ قيس, الذي ارتدَّ عن الإسلام, ثمّ ختم رِدَّته بمصاهرة خليفة المسلمين, وأميرِ المؤمنين.

[1] ـ انظر أسماء هذه الوفود في تاريخ الطبري: 3/ 115, وما بعدها.
[2] ـ تاريخ الطبري: 3/ 130.

إسلامُ الأشعثِ بن قيسٍ الكِنْدِيّ في قبائل كندةَ[1]:

بَعَثَ رسولُ الله في السنة العاشرة للهجرة خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، فَأَقَامَ فيهمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ لم يستجبْ خلالَها إليه أحدٌ[2]، فبعث إليهم بجيشٍ على رأسه عَلِيُّ بنُ أَبِي طالب، فَلَمَّا وصل الجيشُ أَوَائِلَ الْيَمَنِ، بَلَغَ الْقَوْمَ الْخَبَرُ، فَجَمَعُوا لَهُ بغيةَ المواجهة، فجعل عليٌّ جيشَه صَفًّا وَاحِدًا في مواجهتهم, وقرأ عليهم كتابَ رسول الله إليهم، فَأَسْلَمَتْ هَمْدَانُ كُلُّهَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، ثم تتابع أهلُ اليمن على الإسلام[3], فأرسلت كِنْدَةُ بعد أن بلغَها نبأُ إسلامِ همْدانَ وفداً من ستين رجلاً على رأسهم الأشعثُ بنُ قيسٍ الكِنْديُّ, دَخَلُوا على الرسول (ص) وقد رَجَّلُوا جُمَمَهُمْ، وَتَكَحَّلُوا، وتجلبَبُوا بجلاليبَ مُوَشّاةٍ بالحرير، فَلَمَّا رآهُمُ الرسولُ على تلك الهيئةِ، قَالَ لهم: أَلَمْ تُسْلِمُوا؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَمَا بَالُ هَذَا الْحَرِيرِ فِي أَعْنَاقِكُمْ! فما كان منهم إلا أنْ شَقُّوا تلك الجلابيبَ, وَأَلْقَوْا بها أرضاً, مشيرين بذلك إلى رغبتهم في أن يظهروا بالمظهر الذي يريدهُمُ الرسولُ أن يظهروا به, وعادوا بإسلامهم إلى قومهم. ولكنَّ الأشعثَ الذي كان يرأسُ الوفدَ لم يشأِ المغادرةَ قبلَ أن يتيهَ بنفسه وبقومه أمام الرسول, ويعتدَّ بنسبه, ويذكِّرَهُ ـ على نحوٍ غيرِ مباشِر ـ بأنَّ أبناءَ كِنْدَةَ كانوا ملوكاً قبلَ أن يكون القرشيون كذلك, وبأنَّ الرسولَ ليس بأفضلَ نسباً من أبناء كندة إذا انتسبوا. قال الأشعثُ للرسول: يا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ بَنُو آكِلِ الْمُرَارِ، وَأَنْتَ ابْنُ آكِلِ الْمُرَارِ؛ فتبسَّم رسول الله لما قال له الأشعث ذلك[4], وعَلِمَ أنَّه إنما أراد أن يعتدَّ بنسب كِنْدَةَ أمامه.

وفي سياق حديثنا عن إسلام كندة, ربما كان مفيداً لنا في هذا البحث أن نتحدَّث عن إسلام كلٍّ من عمرِو بن معدي كرب الزُّبيدي, وفَروةَ بن مُسيك المرادي, بوصفهما رجلينَ من كِندة, أسلم كلٌّ منهما في سياق مختلفٍ عن السياق الذي أسلم فيه الآخر, فثبتَ منهما على الإسلام فروةُ بنُ مُسيكٍ, الذي أصاب بإسلامهه ما يدفعه إلى الثبات عليه, وارتدَّ عمرو بنُ معدي كَرِب, الذي أصاب بارتداده ما يؤهله ويدفعه إلى الردَّة, والثباتِ عليها بقدر ما يستطيع. وإليكَ ما يصدِّق ذلك, من مجريات ثبات هذا منهما على إسلامه, وثبات ذاك على ردَّته, ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إسلامُ عمرِو بنِ معدي كَرِبْ الزُّبيديّ, وفروةَ بن مُسيكٍ المُرادي:

أفادت المصادر أنَّ عمرَو بنَ معدي كَرِب الزُّبيديَّ عزمَ على الدخول في الإسلام, فعرضَ على قيس بن مكشوح المُرادي الذهابَ معه, فقال له:" يا قيسُ, إنك سيّدُ قومك اليومَ, وقد ذُكر لنا أن رجلاً من

[1] ـ انظر وقائع إسلام قبائل كِندَة في تاريخ الطبري: 3/ 131, ...
[2] ـ الكامل لابن الأثير: 2/ 164.
[3] ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير:2/ 164.
[4] ـ تاريخ الطبري: 3/ 139.

قريش يقال له "مُحَمَّدٌ" قد خرج بالحجاز يقول، إنّي نبيٌّ، فانطلق بنا إليه حَتَّى نعلمَ علمَه، فإن كان نبياً كما يقول، فإنه لا يَخْفَى عليك, إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غيرَ ذَلِكَ علمنا علَمه، فأبى عليه ذَلِكَ قيسُ, وسفَّهَ رأيَه, فركب عمرُو بْنُ مَعْدِ يكرب حَتَّى قدم على رسول الله (ص) فأسلمَ... وعاد إلى قومه من بني زُبيد، وأقام فيهم مسلماً, وعليهم فروةُ بن مسيكٍ المُرادىُّ, فلما مرضَ الرسول ارتدَّ الأسودُ العنْسيُّ فيمن اتبعه من أهل اليمن, ومن بينهم عمرُو بنُ معدي كرب الزُّبيديُّ, الذي جعله الأسودُ أميراً على مَذحِجَ كلها, فقَالَ مسوّغاً ارتدادَه:

وَجدْنا مُلْكَ فَرْوَةَ شَرَّ مُلْكٍ ... حِماراً سافَ مَنْخَرَهُ بقَذْرِ [1]

أمّا فَروةُ بنُ مُسَيْكٍ المُراديُّ نفسُه, فكان قد سبقَ عمرَو بن معدي كرب إلى الإسلام, وكان السبب المباشرَ الذي دفعه إلى الإسلام أنَّ حرباً قد جرت بين هَمْدَانَ ومُرادٍ قبيلَ الإسلام, نالَتْ فيها هَمْدانُ من مُرادٍ, ففارقَ فروةٌ المُرادي على إثرها ملوكَ كِنْدَة, وقَدِمَ على الرسول معلناً إسلامه, فكافأه الرسول على ذلك, بأنْ جعله عاملَهُ على صدقات زُبيد, ومُراد, ومَذْحِج كلها, وبقيَ كذلك إلى حين وفاة الرسول(ص).

ففي ثنايا هذا الخبر الذي روى تفاصيل انتقال عمرِو بنِ معدي كرب من الجاهلية إلى الإسلام ما نعتقد أنه يُؤهِّلُه للارتداد عن الإسلام في اللحظة التي يراها مناسبة لذلك؛ فهو يقول لقيس بن مكشوح: ذُكِرَ لنا أنَّ رجلاً بالحجاز اسمه "مُحَمَّدُ" يقول عن نفسه: إنه نبي, ولم يقلْ لقيس: ظهر في الحجاز نبيٌّ اسمه "محمّدُ" فدعنا نذهب إليه نبايعْه, ولمّا امتنعَ قيسٌ لم يُحاجِجْهُ عمرُو, بل مضى لسبيله وبايعَ الرسول. وانتماءٌ إلى الإسلام على هذا النحو لا يُستغربُ انتهاء صاحبه بالارتداد عنه؛ فهو لم يُمهِّد لدخوله في الإسلام بما يدل على عزمه على الدخول فيه بالاستناد إلى أرضية عقديّة إيمانيّة, ولذلك رأيناه لا يستهلُّ ارتدادَهُ بما يشير إلى اعتراضه على شيء في الدين الإسلامي, إنما استهلَّه بما يدلُّ على أنه خرج أو تمرَّد على سلطة الدولة الإسلامية, ممثَّلةً بفروةَ بن مُسيك, عاملِ الرسول على صدقات زُبيد, ومُراد, ومَذْحِج كلها, وبعدُ:

فبالاستناد إلى ما أثبتناه من أدبياتِ ووقائعِ أو مُجرياتِ إسلام القبائل التي جئنا على ذكرها ربمّا أمكنَنَا الخَلاصُ إلى جملةٍ من النتائج التي يجدُرُ بنا ذكرُها قبلَ انتقالنا إلى الحديث عن رِدَّة هذه القبائل, وأبرزُ هذه النتائج:

1 ـ إنَّ إسلام أبي سفيان لم يكن إسلام فردٍ بذاته, إنّما كان إسلامَ أُمَّةٍ بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمةُ من معنىً؛ لأنه استطاع أن يقدّمَ بإسلامه للإسلام (الدَّولة) ما لم يستطع تقديمَه أحدٌ ممن سبقوه إلى الإسلام؛ فقد أدّى إسلامُه على نحوٍ آليٍّ إلى إسلام قريش, الذي أدّى بدوره إلى إسلام القبائل العربية الواحدةَ تلوَ الأخرى,

[1] ـ انظر مجريات إسلامه في تاريخ الطبري: 3/ 132 – 134.

تأسّياً منها بقريش, الأمر الذي يعني أنَّ القبائلَ العربية جميعَها ـ باستثناء قبائل المدينة (يثرب) ـ قد أسلمت على قاعدة " أسلمْ تسلمْ"؛ أي الإسلامُ مقابل السَّلامة.

2 ـ إنَّ قوله تعالى:" قالت الأعراب: آمَنّا, قل: لم تؤمنوا, ولكن قولوا: أَسْلمْنا". دليلٌ كافٍ على أنَّ الإسلام على قاعدة " أسلموا تسلموا " هو إسلامُ إذعانٍ, وليس إسلامَ إيمانٍ. وقد مرَّ بنا من وقائع إسلام بعض القبائل ما يصدّق ما أشار إليه القرآن الكريم؛ فقد مرَّ بنا أنَّ خالدَ بنَ الوليد قد أقامَ ستّةَ أشهرٍ في قبائل اليمن يدعوهم إلى الإسلام, فلم يستجبْ له منهم أحدٌ, فأرسل الرسولُ الكريمُ إليهم عليَّ بنَ أبي طالب على رأس جيش, فأسلَمَتْ هَمْدانُ كلُّها في يوم واحد. وهذا يدلُّ على أنهم لم يسلموا ـ مُدَّة إقامة خالد فيهم ـ لأنه دعاهم إلى الإسلام باللّسان لا بالسِّنان, ويدلّ من جهة أخرى على أنَّ إسلامَهم ـ وهم في مواجهة جيش عليّ ـ إسلامُ إذعان, لا إسلام إيمان, وعلى أنَّ الغاية منه السلامةُ فحسبُ, تلك السلامةُ التي بديلُها ـ إذا لم يسلموا ـ القتالُ الذي سيؤولُ بهم في نهاية المطاف إلى الدخول في الإسلام صاغرينَ, وقد غُنِمَتْ أرزاقُهم, واستَحرَّ فيهم القتلُ والسَّبْيُ والرّسْفُ بالقيود والأغلال, وسوى ذلك مما يطالُ المهزومين في الحروب. وبعْدُ:

أمّا وقد تحدَّثنا حتى الآن عن مجريات دخول بعض القبائل في الإسلام على قاعدة" أسلموا تسلموا" فقد صار بإمكاننا تتبُّعُ مجريات, أو تفاصيل رِدَّةِ هذه القبائل, لنقفَ عن كثبٍ على أبرز البواعث التي كانت وراء رِدَّتها عن الإسلام.

قد لا يسوغ لنا الحديثُ عن رِدَّة قبائل كندةَ أو غيرها من القبائل العربية عن الإسلام, ما لم يُمَهَّد له بالحديث عن عمّال الرسول (ص) على صدقات أهل اليمن, لأنَّ حروبَ الردَّة ستنشِبُ بين هؤلاء العمال على الصدقات الذين أُوكِلَتْ إليهم مهمَّةُ جباية أموال أبناء هذه القبائل من جهة, وأبناء هذه القبائل المُكَلَّفين بدفع الصدقات من جهة ثانية, بعد أنْ دُعِيَ كلٌّ من طرفي الصراع إلى الدخول في الإسلام بالقول لهم: " أسلموا تسلموا".

ففي الأخبار أنَّ الرسول الكريم كان كلمّا قدم عليه وفدُ قبيلة, وأعلن إسلامَه بين يديه, جعل أحدَ أبرز أعضاء هذا الوفد أميراً على قبيلته التي يمثّلُها, وأرسل معه من طرفه ـ أي من طرف الرسول ـ عاملاً له على الصدقات, يجمعها من المُكَلَّفين بدفعها من أبناء القبيلة, ويُرسل بها إلى المدينة حيثُ أصحابُ الأمر والنفوذ في الدولة, وحسبُنا في هذا البحث أن نذكر من هؤلاء العمالِ عمالَ الرسول على صدقات أهل اليمن أو قبائلها. فقد ذكرت المصادر أنَّ الرسول (ص) بعدما قَضَى حَجَّةُ الوداع، ورجع إلى المدينة قسَّم اليمن إلى إقطاعات, وجعل على كلِّ إقطاع عاملاً له على صدقات قبائله؛ فحَضْرَمَوْتُ وما يتبع لها جعلها ثلاثةَ إقطاعات, وجعل على كلٍّ منها عاملاً له على صدقاته؛ فعلى مدينة "حضرموت" جعل زيادَ بنَ لبيدٍ عاملاً

له على صدقاتها, وجعل على"السَّكاسك والسّكون" التابعة لإقطاع حَضْرَمَوْتَ عُكَاشَةَ بْنَ ثَوْرٍ، وَعَلَى بَنِي مُعَاوِيَةَ ابْنِ كِنْدَةَ, جعلَ المهاجرَ بنَ أبي أميّةَ, أخا زوجته أمِّ سلمةَ[1], وجعل عَمْرَو بْنَ حَزْمٍ, وأبا سفيان ابن حرب عَلَى صدقات نَجْرَانَ[2]، وَجعل خَالِدَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ عَلَى مَا بَيْنَ نَجْرَانَ وَزُبَيْدَ، وَعَامِرَ بْنَ شَهْرٍ عَلَى هَمْدَانَ، وَعَلَى صَنْعَاءَ جعل شهرَ بنَ بَاذَامَ، وَجعلَ عَلَى "عَكٍّ وَالأَشْعَرِيِّينَ" الطَّاهِرَ بْنَ أَبِي هَالَةَ، وَعَلَى مَأْرِبَ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ، وَعَلَى الْجُنْدِ يَعْلَى بْنَ أُمَيَّةَ, وجعل مُعاذَ بنَ جَبَلٍ معلّماً يجول على ما يشاء من تلك الإقطاعات[3].

أمّا الأموالُ التي كُلِّف هؤلاء بجمعها من أبناء هذه القبائل, فحدَّدها الرسول على النحو الآتي: خُمْسُ الله أولاً, ثم صدقةُ العَقار, وهي: عُشْرُ مَا سُقِيَ الْبَعْلُ, وَمَا سَقَتِ السماءُ, ونِصْفُ الْعُشْرِ مما سَقَى الْغَرْبُ، وَفِي كُلِّ عَشْرٍ مِنَ الإِبِلِ شَاتَانِ، وَفِي كُلِّ عِشْرِينَ مِنَ الإِبِلِ أَرْبَعُ شِيَاهٍ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ مِنَ الْبَقَرِ بَقَرَةٌ، وفي كل أربعين مِنَ الْغَنَمِ سَائِمَةُ شَاةٍ، ... ومَنْ زَادَ على ذلك خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ[4].

وإليكَ من أدبيات ردة قبائل كندةَ, وأحداثها ما يدلُّ بوضوح, على أنَّ هذا القانونَ هو حَجَرُ الرَّحى الذي دارت حولَه أحداثُ الردة؛ فقريشُ ومن صارت إليهم مقاليدُ الأمور في الدولة الإسلامية أرادوا إبقاءَ هذا القانون فاعلاً, وإبقاءَ الناس ـ من ثمَّ ـ على إسلامهم؛ أي إبقاءَهم مجرَّدَ دافعي ضرائب, خاضعين لسلطة الدولة مُمَثَّلةً بأبناءِ قريشٍ جُباةِ هذه الأموال المُسَمَّاةِ أو الموسومة بالزكاة أو الصدقات, أمّا المُكَلَّفون بدفعها, والمُتَأذون من هذا القانون, من مختلف القبائل العربية, ومن بينها قبائل كِنْدَة بالطبع, فأرادوا الاحتفاظ بأموالهم, وإلغاءَ العمل بهذا القانون, ولم تكن العقيدةُ ممّا عُنِي به أيٌّ من طرفَي الصراع, بدليل أنَّ ما سنثبته من أدبيات الرِدَّة تخلو ـ كما سيبين لنا ـ من أيّ اعتراضٍ جوهريٍّ, على أيٍّ من أركان الدين الإسلامي, كالصلاة,أو الحج, أو الإيمان بالقرآن, أو سوى هذه من مفردات العقيدة الإسلامية, باستثناء مفردة الصدقة أو زكاة الأموال, التي هي من دعائم نظام الحكم في الدولة الإسلامية, أكثر منها مفردَةً من مفردات الدين الإسلامي, الأمرُ الذي يشير بوضوح إلى أنَّ الرِّدةَ لم تكن عن الدين الإسلامي, إنّما كانت اعتراضاً على دفع

[1] ـ زهدَ المهاجرُ بإقطاع بني معاوية بن كندة, الذي كلَّفه الرسول بجمع صدقة أهله, فلم يلتحق بعمله فيه, وكلَّف زيادَ بنَ لبيد القيامَ بعمله نيابةً عنه, وبقي في المدينة لم يغادرها, حتى إذا كانت الرِّدَّدة في اليمن أرسله أبو بكر لقتال المرتدة. تاريخ الطبري: 3/ 228. وانظر الكامل في التاريخ لابن الاثير: 2/ 229 – 230.

[2] ـ جعل الرسول الكريم عمرَو بن حزم على الصَّلاة, وأبا سفيان على الصدقات: تاريخ الطبري:318/3. ومعلومٌ لدى الدارس أنَّ موضوعَ معركة بدرٍ هو تجارة أبي سفيان التي كانت عائدة من بلاد الشام إلى مكّة. الأمر الذي يعني أنَّ كبيرَ تجار قريش في جاهليّته صار ـ بُعَيدَ إسلامه ـ مُكَلَّفاً بجمع أموال صدقات أهل نجران؛ وهذا ما يفسّر ـ من وجهة نظرنا ـ ثباتَه على الإسلام, بعد أن أسلم على قاعدة "أسلمْ تسْلَمْ" ويُفسِّر من ثمَّ ردّة قبائل نجرانَ التي أسلمت على قاعدة "أسلموا تسلموا" نفسها.

[3] ـ انظر أسماء عمال الرسول على صدقات أهل اليمن في تاريخ الطبري: 3/ 228. .

[4] ـ انظر مفردات أو بنود قانون الصدقة في تاريخ الطبري: 121/3.

الخُمسٍ, وسواه من بنود زكاة الأموال التي عدَّها حكّامُ الدولة القرشية" الإسلامية" ركناً رئيساً من أركان الدين[1].

رِدَّةُ الأشعثِ بنِ قيسٍ الكِنْدِيّ في قبائل حضرموت[2]:

مرَّ بنا أنَّ الرسول الكريم قد قال للأشعث وقد دخل عليه ليعلنَ إسلامَه: لو لمْ يكتبْ إليَّ خالدُ بن الوليد, أنَّك أسلمتَ ولمْ تقاتل لجعلتُ رأسك بين رجليك[3], وأنَّ الأشعثَ قد قال للرسول حينَها: نحن بنو آكل المُرار, وأنتَ ابن آكلِ المُرار, الأمرُ الذي يعني أنه قد قال له ـ على نحوٍ غير مباشر ـ إنَّ قريشاً ليست بأفضل منّا إذا انتسبنا, ولكنَّ الأقدار شاءت أن نصيرَ لكم أتباعاً. ودخولٌ في الإسلام على هذا النحوِ يحملُ في رَحِمِهِ بذرةَ الخروج منه متى سنحت لذلك فرصة مواتية, وقد وجدَ "الأشعثُ" تلك الفرصةَ في وفاة الرسول الكريم, واستخلاف أبي بكر بعد خلافٍ مشهورٍ بين المهاجرين والأنصار حول صاحب الحقّ منهما في الخلافة, فقال "الأشعثُ" لزيادٍ بِن لبيد عاملِ الرسول على صدقات قبائل كندةَ في حضرموت: ليتكَ أرجأتَ جمعَ أموال الناس, وإرسالَها إلى أبي بكر؛ لأنَّ خلافتَه ليست محلَّ إجماع عليها بعدُ[4], فلم يَرُقْ لزيادٍ ما سمعَه من "الأشعث", ورجِع إلى منزله مَغْمُومًا، وبعد أيام قليلة جمع زيادٌ أهلَ حضْرَمَوْتَ, وطلب منهم جمع الصدقات؛ ليرسلها إلى أبي بكر, فجعلوا يدفعونها له بين طائعٍ وكارهٍ[5].

كانت ثمَّةَ ناقةٌ لرجل من كِنْدَةَ قد شُغِفَ بها, فأُعجِبَ زيادٌ بهذه الناقة, فوضع عليها مِيْسَمَ الصَّدقة, وجعلَها بين الإبل التي سيرسلها إلى أبي بكر, فرجاه صاحبُها أن يردَّها إليه, ويأخذَ بدلاً منها أيةَ ناقة أخرى يشاؤها من نوقه, فأبى زيادٌ استبدالَها بغيرها, بحُجَّة أنها دخلت في حقِّ الله, ولم يعد بمقدوره التَّصرُّف بها, فالتمس صاحبُها من حارثةَ بنِ سُراقةَ الكِنديّ(أحد سادات قومه) مساعدتَه في إعادة الناقة إليه, فطلب حارثةُ من زياد بن لبيد إعادةَ الناقة إلى صاحبها, وأخذَ غيرها من نوقه, فأبى زيادٌ وأصرَّ على الاحتفاظ بالناقة, فما كان من حارثةَ إلّا أن عمدَ إلى إبل الصدقة, فأخرج ناقةَ الرجل ودَفَعَها إليه, وقال له: خُذْ نَاقَتَكَ إِلَيْكَ، فَإِنْ

[1] ـ بعد تسلّم أبي بكر الخلافة جاءته وفود القبائل تعرضُ عليه قبولها الصلاة, وامتناعها عن دفع الزكاة, فرفض ذلك أبو بكر, وقال: والله لو منعتموني عقالاً كنتم تدفعونه للنبي لقاتلتكم عليه: تاريخ الطبري:3/ 243.

[2] ـ انظر تفاصيل ردَّة الأشعث في كل من تاريخ الردة للواقدي: 167 حتى 213. وتاريخ الطبري: 3/230 – 239. والكامل في التاريخ لابن الأثير: 3/ 229 – 232.

[3] ـ تاريخ الطبري: 3/ 127.

[4] ـ تاريخ الردة للولقدي: 167.

[5] ـ تاريخ الردة للواقدي: 169.

كَلَّمَكَ أَحَدٌ فَاخْطِمْ[1] أَنْفَهُ بِالسَّيْفِ، نَحْنُ إِنَّمَا أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ حَيًّا،... أَمَّا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَمَا لَهُ طَاعَةٌ فِي رِقَابِنَا وَلا بَيْعَةٌ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ[2]:(مِنَ الطَّوِيلِ)

1- أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ وَسْطَنَا فَيَا عجبا مِمَّنْ يُطيعُ أبا بكرِ

2- لِيُورِثَهُ بَكْرًا إِذَا كَانَ بَعْدَهُ وَتِلْك ـ وَبَيْتِ اللَّهِ ـ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

3- وَإِنَّ أُنَاسًا يَأْخُذُونَ زَكَاتَكُمْ أقلُّ ـ وربِّ البيتِ ـ عندي من الذَّرِّ

4- وَإِنَّ الَّذِي تُعْطُونَهُ بِجَهَالَةٍ لَكَالتَّمْرِ, بلْ أَحْلَى بِفِينَا مِنَ التَّمْرِ

5- أَنُعْطِي قُرَيْشا مَالَنَا إِنَّ هَذِهِ لَتِلْكَ الَّتِي يَخْزَى بِهَا الْمَرْءُ فِي الْقَبْرِ

6- فَيَا قَوْمِ لا تُعْطُوا اللِّئَامَ مُقَادَةً وَقُومُوا وَإِنْ كَانَ الْمُقَامُ عَلَى الْجَمْرِ

7- فَكِنْدَةُ مَا زَالَتْ لُيُوثًا لدى الْوَغَى وَغَيْثَ بَنِي حَوَّاءَ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ

واضحٌ أنَّ حارثةَ بنَ سُراقةَ لا يجد في أبي بكر أكثرَ من جابٍ للأموال لصالح قريش, ولا يجد في استخلافه غيرَ وراثةٍ للحكم تَشِيْ بأنَّه قد يورّث الحكمَ لأبنائه من بعده, الأمرُ الذي من شأنه أن يقصمَ ظهر الآخرين, كما أنَّ ابن سُراقةَ لا يجد في دفع قومه من أبناء كندةَ الأموالَ لأبي بكر عبرَ زيادٍ بنِ لبيدٍ أكثرَ من إذعانٍ غيرِ مُبرَّر منهم لقريش التي هي أقلُّ شأناً من أن تستعبد الآخرين, ولاسيما أولئك الذين عُرِفوا بالفروسية والبطولة والجود, أمثال أبناء كِندة, ملوكِ الناس كابراً عن كابر.

فَلَمَّا بلغت هذه الأبياتُ زياداً خشيَ أنْ تعاجِلَه قبائلُ كندةَ, لتأخذَ منه إبلَ الصَّدقة, فاستعجل المسيرَ إلى أبي بكر, في نفرٍ من أصحابه, فَلَمَّا صَارَ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنَ الْقَوْمِ كَتَبَ إِلَى حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ يقول[3]:(مِنَ الطَّوِيلِ)

1- نُقَاتِلُكُمْ فِي اللهِ, وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ حَتَّى تُطِيعُوا أَبَا بَكْرِ

2- وَحَتَّى تَقُولُوا بَعْدَ خِزْيٍ وَذِلَّةٍ رَضِينَا بِإِعْطَاءِ الزَّكَاةِ عَلَى الْقَسْرِ

[1] ـ الخَطْمُ من الدَابّة مُقدَّمُ أنفها وفمها، وخَطَمَهُ: ضَرَبَ أنفَه، والخِطامُ كلُّ ما وُضِعَ في أنف البعير ليُقتاد به. (القاموس: خطم) .

[2] ـ في معجم البلدان ينسب البيتان الأول والثاني إلى حارثة بن سُراقة: انظر معجم البلدان 2/ 271. مادة حضرموت. وفي تاريخ الطبري: 3/ 246 يُنسبان إلى الخيطل بن أوس, أخي الحطيئة, وقد تجد الأبياتَ جميعها في مصادر أخرى منسوبة للحطيئة.

[3] ـ تاريخ الردة للواقدي: 170 – 173.

فالأشعثُ إذاً ـ بحسب هذه الأبيات التي جاءت على لسان زيادِ بنِ لبيد ـ ليس أكثرَ من عاصٍ لأبي بكر, ومتمرّدٍ على سلطة الدولة التي يحكمها, وما هذه الحربُ التي يشنُّها زياد ممثِّلُ هذه الدولة, سوى حربٍ تهدفُ إلى إخضاع حارثةَ ممثّلِ قبائل كندةَ, ودفعه صاغراً إلى إطاعة أبي بكر والقبول بدفع الزكاة.

فَلَمَّا بلغتْ تلك الأبياتُ أحياءَ كندة غَضِبَتْ غَضَبًا شَدِيدًا، فقام فيهم الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ قائلاً: يَا مَعْشَرَ كِنْدَةَ, أمّا وقد أجمعتم على منع الزكاة, وحرب أبي بكر, فليتكم قَتَلْتُمْ زِيَادَ بْنَ لَبِيدٍ، وَلَكِنَّكُمْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُ حَتَّى أَخَذَ زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ ثُمَّ رَحَلَ عَنْكُمْ إِلَى صَاحِبِهِ أبي بكرٍ، وَكَتَبَ إِلَيْكُمْ يُهَدِّدُكُمْ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّهِ: صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا أَشْعَثُ، لقد كان جديراً بنا قتلُ زيادٍ واسترجاعُ ما أخذه من أموالنا، وَاللَّهِ مَا نَحْنُ إلا عَبِيدٌ لِقُرَيْشٍ، مَرَّةً يُوَجِّهُونَ إِلَيْنَا بِالْمُهَاجِرِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ, فَيَأْخُذُونَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا يُرِيدُونَ، ومرةً يُولُّونَ علينا مِثْلَ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ، فَيَأْخُذُ مِنْ أَمْوَالِنَا وَيُهَدِّدُنَا بِالْقَتْلِ. وَاللَّهِ لا طَمِعَتْ قُرَيْشٌ فِي أَمْوَالِنَا بَعْدَهَا أَبَدًا[1]، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:(مِنَ الطَّوِيلِ)

1- إِذَا نَحْنُ أَعْطَيْنَا الْمُصَدِّقَ[2] سُؤْلَهُ فَنَحْنُ لَهُ ـ فِيمَا يُرِيدُ ـ عَبِيدُ

2- أَفِي كُلِّ يَوْمٍ للمُهاجِرِ جَبْوَةٌ [3] ولابـنِ لَـبِيدٍ! إِنَّ ذَا لَـشَدِيدُ

3- فَحَتَّى مَتَى نُعْطِي الإِتَاوَةَ[4] مَعْشَرًا إِذَا أَخَذُوا قَالُوا لِمَعْشَرَ عُودُوا

فهذه الأبيات تدلُّ دلالةً لا لَبْسَ فيها على أنَّ حَجَرَ الرَّحى الذي يدور حولَه الصراعُ بين بعض مسلمي" أسلموا تسلموا" ممثَّلين بزيادِ بنِ لَبيد, والمُهاجِرِ بنِ أبي أميَّة, عامِلَي أبي بكر على صدقات أبناء كندة من جهة, وبعضهم الآخر ممثَّلين بالأشعث بن قيس, ومن ورائه قبائلُ كندةَ من جهة أخرى, هو المالُ الذي يدفعه أبناءُ كندةَ رغمَ أنوفهم لقريش التي دأبت ـ مذْ أسْلَمَ الناسُ ـ على استعبادهم, ناسيةً أو متناسية أنَّ مَنْ تستعبدهم اليومَ كانوا ملوكَ الأرض, قبل أن تملكَها قريشٌ حديثةُ العهدِ بالمُلك.

بعد ذلك تكلّم الأشعث, فحثَّ قومَه على الثَّباتِ وعدم التَّفرق, لعلمه بأنَّ العرب لن يتخلُّوا عن قريش, ويلحقوا بكندةَ, على الرَّغم من كون كندةَ ـ من وجهة نظره ـ أحقَّ بالاتباع, فقال: يَا مَعْشَرَ كِنْدَةَ، إِنْ كُنْتُمْ عَلَى مَا أَرَى، فَلْتَكُنْ كَلِمَتُكُمْ وَاحِدَةً، وَالْزَمُوا بِلادَكُمْ وَحَوِّطُوا حَرِيمَكُمْ، وَامْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ

[1] ـ تاريخ الردة للواقدي: 174.
[2] ـ المصدق: الذي يأخذ الحقوق من الإبل والغنم. اللسان: صدق.
[3] ـ جبي الخراج جمعه واستيفاؤه. اللسان: جبى
[4] ـ بمعنى الخراج نفسه. اللسان : أتى

الْعَرَبَ لا تَقَرُّ بِطَاعَةِ بَنِي تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ وَتَدَعُ سَادَاتِ الْبَطْحَاءِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ إِلَى غَيْرِهَا، ...، وَنَحْنُ لَهُ أَحْرَى، وَأَصْلَحُ مِنْ غَيْرِنَا، لأَنَّا الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ قُرَشِيٌّ وَلا أَبْطَحِيٌّ[1]".

لم يشأ زيادُ إطلاع أبي بكر على ما جرى بينه وبين الأشعث وقومه, حتى سار في أحياء كندةَ, وجعل يطلب من كلٍّ منهم مؤازرتَه, وعدمَ اتباع الأشعث, فلم يستجب له أحدٌ, فلمّا رأى أنَّ كندة بأسرها مُجْمِعَةٌ على الخروج عليه أبلغ أبا بكر بعزم قبائل كندة على الارتداد والعصيان, فجهَّز أبو بكر جيشاً من المهاجرين والأنصار, قوامُهُ أربعةُ آلافِ شخصٍ, وجعل زياداً على رأسه, فلما صار الجيش على مشارف ديار كندةَ صادفَ أربعة أخوة من ملوكهم, فَبَغَتَهم, وقتلهم جميعاً[2], مع أخت لهم يُقَالُ لها العَمَرّدَة, وأخذ كلَّ ما وقعت عليه أيدي جنوده من أموالهم, وبعدها سار إلى بني هند, أحد أحياء كندة, فبَغَتَهُم أيضاً, وقتل منهم عدداً من الرجال, وسبى النساء والذّراري, وأخذ أموالهم, ثُمَّ سَارَ إلى بني العَاتِكِ، فَوَافَاهُمْ وَهُمْ غَافِلُونَ، فأثخن فيهم القتل, حتى أسلموه دِيَارَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، ومن بني العاتك سَارَ إِلَى بني حُجْر، وهم يَوْمَئِذٍ جَمَرَاتُ كِنْدَةَ وَفُرْسَانُهُمْ، فَلَمْ يَشْعُرُوا إِلا وَالْخَيْلُ قَدْ كَبَسَتْهُمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فقتلَ مِنْهم نحوَ مائتي رجل, وأَسَرَ منهم خمسين, وانهزم الباقون تاركين له جميع أموالهم نهباً, بما في ذلك النساء والأولاد, ثُمَّ سَارَ زِيَادُ إِلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ كِنْدَةَ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو جَمْرٍ، فأصابهم منه مثلُ ما أصاب أبناءَ عمومتهم, فلمّا بلغَ الأشعثَ ما حلَّ بأبناء عمومته من بني هند, وبني العاتك, وبني جمر, وبني حجر غَضِبَ وقَالَ: لا كَرَامَةَ لِزِيَادٍ, يَقْتُلُ قَوْمِي وَبَنِي عَمِّي، وَيَسْبِي النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ، وَيَحْتَوِي عَلَى الأَمْوَالِ، وَأَقْعُدُ عَنْهُ، ثمَّ نَادَى فِي بَنِي عَمِّهِ مِنْ بَنِي مُرَّةَ وَبَنِي عَدِيٍّ وبني جَبَلَةَ، وَسَارَ يُرِيدُ زِيَاداً في ألف من فرسان قومه، وَزِيَادٌ بْنُ لَبِيدٍ فِي أَرْبَعَةِ آلاف جُلُّهم مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَالْتَقَيا بالقرب من حضرموت, في مدينة يقال لها "تِرْيَم"، فتطاحن الجمعان، وَوَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى زِيَادٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ ما ينوف على ثَلاثِ مِائَةِ رَجُلٍ، وَانْهَزَمُوا هَزِيمَةً قَبِيحَةً، فتحصَّن من بقي منهم في "تريم"، وَاحْتَوَى الأَشْعَثُ عَلَى ما كان زيادٌ قد نهبه من الأَمْوَالِ وَالْغَنَائِمِ وَالذَّرَارِيِّ، فَرَدَّهَا إِلَى أَهْلِهَا من أبناء كندة, ومضى بأصحابه إلى مدينة" تِرْيَمَ" حيث يتحصّنُ زيادٌ ومن معه من المسلمين, فحاصرهم حصاراً شديداً, فاستنجد زيادُ بالمهاجر بن أبي أميَّة المخزومي, فسار إليه في ألف فارس مدداً, فطلب الأشعث من جنوده التَّنحّي عن باب مدينة "تريم" ليمكّن المهاجرَ من دخولها, فلما دخلها, أعاد الأشعثُ جنودَه إليها, وجعلهم على بابها, فأحكم بذلك الحصارَ على كلٍّ من زيادٍ والمهاجرِ بن أبي أميَّة, وأرسل إِلَى جَمِيعِ قَبَائِلِ كِنْدَةَ، فَأَجَابَهُ الْجَبْرُ بْنُ قَشْعَمٍ فِي قَوْمِهِ مِنْ بَنِي الأَرْقَمِ، وَأَجَابَهُ أَبُو قُرَّةَ الْكِنْدِيُّ

[1] ـ كتاب الردة للواقدي: 175.
[2] ـ هؤلاء الملوك هم: جَمَد, مُشَرّح, أبضعة, مُخَوّص. انظر كتاب تاريخ الردة للواقدي: 185

فِي قَوْمِهِ مِنْ بَنِي حُجْرٍ، وَأَجابَهُ الْخَنْفَسِيسُ بْنُ عَمْرٍو فِي قَوْمِهِ مِنْ بَنِي هِنْدٍ, وسوى هؤلاء كثير. وقال رجلٌ منهم في ذلك شامتاً بزيادٍ ومَنْ معه من المسلمين:(مِنَ الْكَامِلِ)

1- أَخْبِرْ زِيَادًا إِنَّ كِنْدَةَ أَجْمَعَتْ طُرًّا عَلَيْكَ فَكَيْفَ ذَلِكَ تَصْنَعُ

2- أَحْيَاءُ كِنْدَةَ قَدْ أَتَتْكَ بِجَمْعِهَا وَلَدَيْكَ مِنْهَا جِيرَةٌ لَوْ تَنفَعُ

3- قَدْ صَيَّرَتْكَ إِلَى التَّحَصُّنِ صَاغِرًا حَتَّى كَتَبْتَ إِلَى عَتِيقٍ تَضْرَعُ

4- فَاصْبِرْ وَلا تَجْزَعْ لِوَقْعِ سُيُوفِنَا إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا جَنَى لا يَجْزَعُ

فلما بلغ ذلك أبا بكر لم يجدْ بدّاً من استرضاء الأشعث, والجنوح إلى السياسة في التعامل معه بدلاً من الحرب, فكتب إليه كتابَ استرضاء واعتذار قال فيه: إِنْ كَانَ قد حَمَلَكُمْ على الرُّجُوعِ عَنْ دِينِ الإِسْلامِ وَمَنْعِ الزَّكَاةِ مَا فَعَلَهُ بكم عاملي زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ، فَإِنِّي أَعْزِلُهُ عَنْكُمْ، وَأُوَلِّي عَلَيْكُمْ مَنْ تُحِبُّونَ، وَقَدْ أَمَرْتُ صَاحِبَ كِتَابِي هَذَا إِنْ أَنْتُمْ قَبِلْتُمُ, أَنْ يَأْمُرَ زِيَادًا بِالانْصِرَافِ عَنْكُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ وَتُوبُوا مِنْ قَرِيبٍ[1]، وَفَّقَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِكُلِّ مَا كَانَ فِيهِ رِضًى، وَالسَّلامُ) . ثُمَّ طَوَى الْكِتَابَ، وأرسله مع رجل من قيس عيلان, فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَى الأَشْعَثِ وَقَرَأَهُ، أَقْبَلَ عَلَى الرَّسُولِ وَقَالَ له: إِنَّ صَاحِبَكَ أَبَا بَكْرٍ يُلْزِمُنَا الْكُفْرَ بِمُخَالَفَتِنَا لَهُ، وَلا يُلْزِمُ صَاحِبَهُ الْكُفْرَ بِقَتْلِهِ قَوْمِي[2]؟! فوثب إِلَى الرَّسُولِ ابنُ عمٍّ للأشعث, فَضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ ضَرْبَةً فَلَقَ هَامَتَهُ، فَسَقَطَ الرَّسُولُ مَيِّتًا، فَقَال الأَشْعَثُ لابن عمّه: للَّه دَرُّكَ، فلقد قصَّرتَ الْعِتَابَ وَأَسْرَعْتَ الْجَوَابَ, فاعترض الجَبْرُ بن القشعم, وأبو قُرَّة الكندي, على قتل الرسول, وانشقوا عن الأشعث لهذا السبب, فجمعوا من أتباعهما نحواً من خمسة آلاف جندي خرجوا على الأشعث, وذهبوا لقتاله, فالتقى الجمعان بوادٍ يُقَالُ لَهُ الرَّقَّانُ قَرِيبًا من مدينة "تريم"، فبرزَ للأشعث المهاجرُ بن أبي أميّة, فلم يُطِقِ المهاجرُ الصُّمودَ أمامه, ففرّ هارباً, فعيَّره الأشعث بذلك قائلاً: يَا مُهَاجِرُ، تُعَيِّرُ النَّاسَ بِالْفِرَارِ وَتَفِرُّ فِرَارَ الْحِمَارِ. ثُمَّ حَمَلَ الأَشْعَثُ وَأَصْحَابُهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَهَزَمَهُمْ حَتَّى أَدْخَلَهُمْ مَدِينَةَ تِرْيَمَ، وَقَدْ قتل وجرح منهم الكثير, وأطبق عليهم الحصار, حتى صيَّرهم في ضيق شديد, فكَتَبَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يُخْبِرُهُ بِقَتْلِ الرَّسُولِ، وَيُعْلِمُهُ أَنَّهُ وَأَصْحَابَهُ مُحَاصَرُونَ أَشَدَّ الْحِصَارِ[3].

فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، قال لمن حوله: أَشِيرُوا عَلَيَّ مَا الَّذِي أَصْنَعُ فِي أَمْرِ كِنْدَةَ؟ فاقترح عليه أبو أيوب الأنصاري أن يُرجيء مطالبتهم بالزكاة, لعلّهم يعودون إلى الرشد ويدفعونها له بعد ذلك,

[1] ـ كتاب الردة للواقدي: 191.
[2] ـ كتاب الردة للواقدي: 192
[3] ـ كتاب الردة للواقدي : 195 – 196

فأجابه أبو بكر قائلاً: وَاللَّهِ يَا أَبَا أَيُّوبَ، لَوْ مَنَعُونِي عِقَالا وَاحِدًا مِمَّا كَانَ النَّبِيُّ (ص) وَضَعَهُ عَلَيْهِمْ لَقَاتَلْتُهُمْ أَبَدًا، أَوْ يُنِيبُوا إِلَى الْحَقِّ, فَسَكَتَ أَبُو أَيُّوبَ.[1] ثمّ كُتُبَ أبو بكر إِلَى عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ, كتاباً قال فيه: فَقَدْ بَلَغَكَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ وَقَبَائِلِ كندة، وقد أتاني كتاب زياد بْنِ لَبِيدٍ، يَذْكُرُ أَنَّ قَبَائِلَ كِنْدَةَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ، وَقَدْ حَصَرُوهُمْ فِي مَدِينَةِ تِرْيَمَ بِحَضْرَمَوْتَ، فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَسِرْ إِلَى زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ فِي جَمِيعِ أصحابك ومن أجابك من أهل مكة، ...ولا تَمُرَّنَّ بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ إلا اسْتَنْهَضْتَهُمْ فَأَخْرَجْتَهُمْ مَعَكَ إِلَى مُحَارَبَةِ الأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ وَأَصْحَابِهِ. إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالسَّلامُ) فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ عِكْرِمَةَ, نَادَى فِي أَهْلِ مَكَّةَ، وَخَرَجَ منها فِي أَلْفَيْ فَارِسٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَوَالِيهِمْ وَأَحْلافِهِمْ، وَسَارَ حَتَّى صَارَ إِلَى نَجْرَانَ، وَبِهَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ فِي بَنِي عَمِّهِ مِنْ بَجِيلَةَ، فَدَعَاهُ عِكْرِمَةُ إِلَى حَرْبِ الأَشْعَثِ، فَأَبَى عَلَيْهِ جَرِيرٌ, ثُمَّ سَارَ إِلَى مَأْرِبَ فَنَزَلَهَا، وَبَلَغَ ذَلِكَ أَهْلَ دُبَا, فَغَضِبُوا عَلَى مَسِيرِ عِكْرِمَةَ إِلَى مُحَارَبَةِ كِنْدَةَ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ: تَعَالَوْا حَتَّى نَشْغَلَ عِكْرِمَةَ عَنْ مُحَارَبَةِ بَنِي عَمِّنَا مِنْ بَنِي كِنْدَةَ وَقَبَائِلِ الْيَمَنِ، فوَثَبُوا عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ عَمْرٍو, عَامِلِ أبي بكر على الصدقات، فَطَرَدُوهُ عَنْ بَلَدِهِمْ، ففرَّ إِلَى عِكْرِمَةَ، وكَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بأَنَّ أهلَ دُبا قد ارتدوا عن الإسلام, وطردوه من ديارهم فَاغْتَاظَ لذلك أَبُو بَكْرٍ, وكَتَبَ إِلَى عِكْرِمَةَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي فَسِرْ إِلَى أَهْلِ دُبَا, فَأَنْزِلْ بِهِمْ مَا هُمْ لَهُ أَهْلٌ...، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ أَمْرِهِمْ فَابْعَثْ إليّ بهم أَسِيرًا، وَسِرْ إِلَى زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَفْتَحَ عَلَى يَدَيْكَ بِلادَ حَضْرَمَوْتَ. فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ عَلَى عِكْرِمَةَ، سَارَ بجمعهِ إِلَى أهل دُبَا, وأنزل بهم هزيمةً أسفرت عن مقتل زهاءَ مائةِ رجل منهم, وأحجرهم في المدينة, وضيّق عليهم الحصار, فأرسلوا إليه يسألونه الصُّلْحَ, فصالحهم على أن يؤدوا الزكاة, ويعودوا إلى محبّته, ومحبَّة أبي بكر, ويُقِرّوا بأنهم على الباطل, وأنَّ خصومهم على الحق, وبأنَّ قتيلهم في النار, وقتيل خصومهم في الجنة, وأنَّ لخصومهم الحقَّ في أن يحكموا فيهم بما يرون, ثمَّ أمرهم بالخروج من المدينة مجرَّدين من السلاح, فلمّا فعلوا غَنَمَ أموالهم, وقتل منهم الأشرافَ, وسَبَى النساءَ والأولادَ, ووجَّه بمن بقي منهم إلى أبي بكر, وقوامهم: ثلاثمائة رجل, وأربعمائة من النساء والأولاد, فهمَّ أبو بكر بقتل رجالهم, فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ الْقَوْمَ عَلَى دِينِ الإِسْلامِ، لأَنِّي أَجِدُهُمْ يَحْلِفُونَ باللَّه مُجْتَهِدِينَ مَا رَجَعُوا عَنْ دِينِ الإِسْلامِ، وَلَكِنْ شَحُّوا عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ مَا كَانَ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ، وَاحْبِسْهُمْ عِنْدَكَ إِلَى أَنْ تَرَى فِيهِمْ رَأْيَكَ, فحبسهم أبو بكر, وبقوا كذلك محبوسين, حتى توفّى الله أبا بكر, فأطلق سراحَهم عُمَرُ, وجعل لهم الخيارَ في الإقامة حيث شاؤوا من أرض الإسلام[2].

[1] ـ كتاب الردة للواقدي: 197.
[2] ـ كتاب الردة للواقدي: 198 – 200.

لمّا سمع الأشعث بقدوم عكرمة مَدَداً لزياد بن لبيد, لاذ بالنُّجير, أحد حصون حضرموت, فتحصَّن فيه, فجعل زياد يحرّض المسلمين على حربهم, وفعل الأشعثُ مثلما فعل زياد, فعبّى جيشَه وحثَّه على الصبر والثبات؛ فالتقى الجيشان, ودارت الدائرة على زياد, فانحاز إلى حضرموت وتحصَّن فيها, وبقي كذلك حتى وصل إليه عكرمةُ بن أبي جهل مدداً, فدارت بين الفريقين معارك عدَّة أسفرت عن تقهقر جيش الأشعث, واضطراره إلى الاستسلام, مقابلَ أخذ الأمان لنفسه ولمن معه من قومه, وعندما أخذ رجالُهُ بالخروج من الحصن, جعل زيادٌ يضربُ رقابَهم, فَبَيْنَمَا هو كَذَلِكَ يَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْقَوْمِ، وَرَدَ عَلَيْهِ، كتاب من أبي بكر, يقول فيه: أَمَّا بَعْدُ يَا زِيَادُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ قَدْ سَأَلَكَ الأَمَانَ، وَقَدْ نَزَلَ عَلَى حُكْمِي، فَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتَابِي هَذَا، فَاحْمِلْهُ إِلَيَّ مُكَرَّمًا، وَلا تَقْتُلَنَّ أَحَدًا مِنْ أَشْرَافِ كِنْدَةَ، صَغِيرًا وَلا كَبِيرًا، وَالسَّلامُ[1], ولكنَّ سيفَ زياد كان قد سبق كتابَ أبي بكر إليه, فقال بعدما قرأ الكتاب: أَمَا إِنَّهُ لَوْ سَبَقَ هَذَا الْكِتَابُ قَبْلَ قَتْلِي هَؤُلاءِ مَا قَتَلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَكِنْ قَدْ مَضَى فِيهِمُ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ. ثُمَّ جَمَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ مُلُوكِ كِنْدَةَ، وَهُمْ ثَمَانُونَ رَجُلا، صفَّدهم بالحديد, وأرسلهم إلى أبي بكر, يتقدَّمهم الأشعثُ بن قيس, فاستقبله أبو بكر بقوله له: الْحَمْدُ للَّه الَّذِي أَمْكَنَ مِنْكَ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ، فقالَ له الأَشْعَثُ: لَعَمْرِي لَقَد أَمْكَنَكَ اللَّهُ مِنِّي، وَبَعْدُ، فإني ـ والله ـ مَا غَيَّرْتُ وَلا بَدَّلْتُ, وَلا شَحَحْتُ عَلَى مَالٍ، وَلَكِنَّ عَامِلَكَ زِيَادًا جَارَ عَلَى قَوْمِي، فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَنْ لا ذَنْبَ لَهُ، فَأَنِفْتُ لِذَلِكَ، وَانْتَصَرْتُ لِقَوْمِي فَقَاتَلْتُهُ، وَقَدْ كَانَ مِنِّي مَا قَدْ كَانَ، فَإِنِّي أَفْدِي نَفْسِي وَهَؤُلاءِ الْمُلُوكَ، وَأُطْلِقُ كُلَّ أَسِيرٍ لكَ فِي بِلادِ الْيَمَنِ, وَأَكُونُ عَوْنًا لَكَ وَنَاصِرًا مَا بَقِيتُ، عَلَى أَنَّكَ تُزَوِّجَنِي أُختَكَ أُمَّ فَرْوَةَ، فَإِنِّي لَكَ نِعْمَ الصِّهْرُ, فَأَطْرَقَ أَبُو بَكْرٍ هنيهةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ, وأمر بإطلاق سراح الأشعث, وسراح من كان معه من ملوك كندة, ثمّ أجلسه بجانبه, وعقد له على أخته أمّ فروةَ, وأحسنَ إليه غايةَ الإحسان, وجعله في أفضل المنازل وأرفعها مدَّة حياته, فانتهت بذلك رِدَّة الأشعث التي تكلَّلت بزواجه من أخت الخليفة أمير المؤمنين[2].

وحسبُنا بخاتمةِ رِدَّة الِأشعث (الذي ختمَ رِدَّته بمصاهرة أمير المؤمنين) دليلاً على أنَّ الرِدَّة لم تكن قطُّ عن دين أو عقيدة, إنما هي حالةٌ من العصيان والتَّمرُّد على سلطة الدولة القرشية, التي بعثت في الناس الإحساسَ بأنهم مجرَّدُ أتباعٍ لقريش والأنصار من بعدهم, فأرادوا ـ لمّا أمكنتهُمُ الفرصةُ ـ حُكمَ أنفسهم بأنفسهم, وجعلَ أموالهم بأيديهم, لا بيد أحدٍ آخرَ سواهم, كائناً مَنْ كان هذا الآخر, غيرَ عابئين بأثر ذلك في الدين أو العقيدة. وبعدُ:

فبالاستناد إلى ما أثبتناه من أدبيات الرِّدَّة: الشعرية منها والنثرية, وإلى ما أثبتناه من وقائعها وأحداثها أيضاً, ربما أمكننا الخَلاصُ إلى جملة من النتائج, أبرزها:

[1] ـ كتاب الردة للواقدي: 211.
[2] ـ كتاب الردة للواقدي: 213.

1 ـ إنَّ الرِّدَّة عن الإسلام هي حالة من التمرد على سلطة دولة قريش, ومَنْ جمعتها معها المصالح, وليست رجوعاً عن دين الإسلام, إلى عقائد الجاهليّة.

2 ـ إنَّ الباعث الرئيس على الرِّدَّة عن الإسلام هو رغبة الناس في الاحتفاظ بأموالهم, وإحساسهم بأنَّ قريشاً, ومَنْ جمعتهم معها المصالح, ينعمون بما ليس لهم فيه حقٌّ من أموال غيرهم.

3 ـ إنَّ ما أفرزته الرِّدَّة من أدبيات شعرية ونثرية وسلوكية وسواها تخلو من أيِّ حوارٍ أو نقاش عقديٍّ, الأمر الذي يدلُّ دلالة بيّنة على أنَّ الرِّدَّة في وادٍ, والعقيدةَ والدينَ في وادٍ آخر, بعيدٍ عنه كلَّ البعد.

4 ـ إنَّ انتهاء رِدَّة الأشعث بن قيس بزِفافِهِ على أخت الخليفةِ أبي بكرٍ الصِّدّيق لدليلٌ صارخٌ على معرفة أبي بكر, بل إيمانِه بأنَّ الأشعثَ لم يكن مرتداً عن الدين الإسلامي, إنما كان متمرِّداً على سلطة الدولة الإسلامية, مُمَثَّلةً بزياد بن لبيد الذي جار في حكمه, فقتل الناسَ بغير وجه حقٍّ, وتعسَّفَ في جباية أموالهم, وقام بكلِّ ما يقوم به الحاكم المُسْتَبِدُّ من ممارساتٍ تدفع المحكومينَ المظلومينَ المقهورينَ المقموعينَ إلى الثورة عليه, ومحاولة إسقاطه.

مصادر البحث

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ البدء والتاريخ للمُطَهّر بن طاهر المقدسي/ ت355 هـ/ منشورات مكتبة الثقافة الدينية, مصر العربية, بور سعيد, بلا تاريخ للنشر.

3 ـ تاريخ الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري(ت310هـ), منشورات دار التراث العربي ببيروت. الطبعة الثانية, 1387هـ.

4. ـ الكامل في التاريخ, لابن الأثير |(ت 630هـ), تحقيق عمر عبد السلام تدمري, منشورات دار الكتاب العربي ببيروت, الطبعة الأولى 1417هـ. 1997م.

5 ـ كتاب الرّدَّة للواقدي, أبي عبد الله, محمد بن عمر الواقدي(ت 207هـ), تحقيق يحيى الجبوري, منشورات دار الغرب الإسلامي ببيروت, الطبعة الأولى 1410هـ, 1990م.

6 ـ لسان العرب, لابن منظور(ت711هـ), منشورات دار صادر ببيروت, الطبعة الثالثة 1414هـ.

Research Sources

1- The Holy Quran.

2 - The beginning and history of the purgatory Ben Tahir al-Qudsi/T355 H/Publications of the Library of Religious Culture, Egypt Arabic, Port Said, No publication date.

3 - The history of Tabari for the father of Jafar Mohammed bin Jarir al-Tabari (T310H), publications of the Arab Heritage House in Beirut. Second edition, 1387 AH.

4- Full in History, Son of Al-Atheer (P 630H), Omar Abdussalam Tahmari, Publications of Arab Book House in Beirut, First Edition 1417H. 1997.

5 - The Book of Al-Rada Al-Waqdi, Abu Abdullah, Mohammed bin Omar Al-Waqdi (T207H), Yahya Al-Jabouri Investigation, Publications of West Islamic House in Beirut, First Edition 1410H, 1990.

6. Arabic tongue, Son of Manzoor (T711H), publications of the Beirut House, third edition 1414H.